



أين الولايات المتحدة؟... هكذا تسأـلـ المـبعـوثـ الأمـمـيـ الخاصـ بالـأـزمـةـ السـورـيةـ أـمـامـ مؤـتمرـ مـيونـيـخـ للـأـمـنـ فيـ سـيـاقـ حـدـيـثـهـ عنـ التـحـضـيرـ لـلـمـفاـوضـاتـ بـيـنـ الـمـعـارـضـةـ وـالـنـظـامـ.ـ وـبـعـدـ شـرـوـعـهـ فـيـ إـدـارـةـ «ـجـنـيـفـ 4ـ»ـ قدـ يـكـونـ سـتـيفـانـ دـيـ مـيـسـتـورـاـ تسـأـلـ أـيـضـاـًـ أـيـنـ رـوـسـيـاـ؟ـ فـغـيـابـ الـدـولـتـيـنـ الـكـبـرـيـيـنـ مـؤـشـرـ،ـ لـدـيـهـ وـلـدـيـ كـثـيـرـيـنـ،ـ لـمـرـاـوـحـةـ التـفـاـوضـ فـيـ اـنـتـظـارـ تـدـلـهـمـاـ،ـ الـذـيـ يـنـتـظـرـ بـدـورـهـ تـوـافـقـهـمـاـ،ـ كـمـ يـتـطـلـبـ اـسـتـعـادـتـهـمـاـ الـاتـصـالـ وـالـتـوـاـصـلـ لـإـنـتـاجـ تـفـاـهـمـاتـ جـدـيـدـةـ،ـ إـذـ لـمـ يـبـقـ مـنـ السـابـقـةـ سـوـىـ الـفـلـيـلـ الـذـيـ يـمـكـنـ إـبـقاءـ عـلـيـهـ،ـ ثـمـ إـنـ رـوـسـيـاـ غـيـرـتـ الـكـثـيـرـ مـنـ مـعـطـيـاتـ الـأـزمـةـ وـوـقـائـعـهـاـ،ـ بـعـدـ مـمـانـعـةـ أـوـ بـشـبـهـ تـفـويـضـ أـمـيرـكـيـيـنـ،ـ لـكـنـ مـنـ دـوـنـ أـنـ يـعـنـيـ ذـلـكـ أـنـ وـاـشـنـطـنـ بـاـصـمـةـ مـسـبـقاـ عـلـىـ كـلـ مـاـ تـفـعـلـهـ مـوـسـكـوـ أـوـ مـسـتـعـدـةـ لـلـقـبـولـ بـكـلـ أـمـرـ وـاقـعـ تـقـيـمـهـ.ـ عـلـىـ الـعـكـسـ،ـ قـدـ تـكـوـنـ أـمـيرـكـاـ،ـ بـدـورـهـاـ،ـ فـيـ صـدـدـ إـحـدـاثـ تـغـيـرـاتـ لـجـعـلـ الـمـنـاطـقـ الـآـمـنـةـ أـمـرـاـ وـاقـعـاـ آـخـرـ،ـ وـلـذـاـ تـجـبـ مـراـقـيـةـ الـحـرـاكـ فـيـ جـبـهـةـ دـرـعـاـ وـالـمـرـاجـعـةـ الـأـمـيرـكـيـةـ لـقـوـاعـدـ التـنـسـيقـ مـعـ تـرـكـيـاـ فـيـ شـائـيـ الشـمـالـ السـوـرـيـ وـ«ـالـحـرـبـ عـلـىـ دـاعـشـ»ـ.

شـعـرـتـ دـوـلـ «ـمـجـمـوعـةـ أـصـدـقـاءـ سـوـرـيـةـ»ـ بـبـعـضـ مـنـ الـأـرـتـيـاحـ،ـ خـلـالـ اـجـتمـاعـهـاـ فـيـ بـرـلـيـنـ،ـ عـنـدـمـاـ أـكـدـ وزـيـرـ الـخـارـجـيـةـ الـأـمـيرـكـيـ دـعـمـ وـاـشـنـطـنـ مـفـاـوضـاتـ جـنـيـفـ،ـ إـذـ كـانـ نـظـرـاؤـهـ يـتـخـوـفـونـ مـنـ مـوـقـفـ مـفـاجـئـ وـصـادـمـ عـلـىـ الـطـرـيـقـةـ الـتـرـامـبـيـةـ،ـ خـصـوصـاـًـ أـنـهـمـ تـلـقـواـ إـشـارـاتـ عـدـّـةـ تـفـيـدـ بـأـنـ الـإـدـارـةـ الـجـدـيـدـةـ لـمـ تـعـدـ مـقـنـعـةـ بـأـنـ مـسـارـ جـنـيـفـ يـمـكـنـ أـنـ يـفـضـيـ إـلـىـ حـلـ سـيـاسـيـ.ـ لـكـنـ وـحدـةـ الـمـوـقـفـ وـمـظـهـرـ التـمـاسـكـ الـلـذـيـنـ خـرـجـ بـهـمـاـ اـجـتمـاعـ «ـأـصـدـقـاءـ سـوـرـيـةـ»ـ لـيـسـ الـكـلـمـةـ الـأـخـيـرـةـ لـإـدـارـةـ تـرـامـبـ،ـ كـونـهـاـ لـاـ تـزالـ تـدـرـسـ خـيـارـاتـهـاـ وـلـيـسـ مـعـرـوفـاـ مـنـ تـوـجـهـاتـهـاـ الـمـقـبـلـةـ سـوـىـ تـرـكـيـزـهـاـ عـلـىـ ضـرـبـ «ـدـاعـشـ»ـ،ـ وـكـونـهـاـ فـيـ كـلـ الـأـحـوـالـ تـرـيدـ تـعـاـوـنـاـ مـعـ رـوـسـيـاـ.ـ لـذـلـكـ فـإـنـ «ـالـدـعـمـ»ـ الـذـيـ أـعـلـنـهـ رـيـكـسـ تـيلـيرـسـونـ لـ «ـجـنـيـفـ 4ـ»ـ لـاـ يـحـمـلـ مـلـامـحـ الـرـعـاـيـةـ السـابـقـةـ لـلـمـفـاـوضـاتـ

وأهدافها، ولا يوضح من تدعم إدارة ترامب حالياً في سوريا، فهي جمدت تسليحها لفصائل مقاتلة وحضرتها على توحيد صفوفها لمقالة «داعش»، وليست لها اتصالات معروفة مع أي فريق معارض، فيما تداول على نطاق ضيق معلومات عن اتصالات لها مع أجهزة تابعة للنظام في إطار التخطيط للحرب على الإرهاب وربما تتناول أيضاً مسألة «المناطق الآمنة». كما ينتظر الحلفاء والأصدقاء، كذلك ينتظر «قيسر» الكرملين، فالتسريع في اتخاذ قرارات والتعثر في اختيار الأشخاص والتقلب في تحديد الأهداف تؤخر إقلاع إدارة ترامب بسياسة خارجية جديدة على رغم وجود ملفات ساخنة. كما أن التأرجح بين الاندفاع والتراجع أكد صعوبة أن تحسن واشنطن موقفها من روسيا، فأجواء المغازلات بين ترامب وفلاديمير بوتين تبدّلت ولم يبق سوى منها تكرار بروتوكولي للرغبة في تقاربٍ وتعاونٍ ليس واضحاً متى يبدأ، ولا في أفق استراتيجي يمكن تطبيقهما. ولا شك أن قضية التدخل الروسي في الحملة الانتخابية ودعائياً وصولاً إلى استقالة مايكل فلين المستشار السابق للأمن القومي أبطأ التقارب وأجلّته. وإذا أضيف الجدل على تصنيف روسيا صديقاً أو عدوًّا، وتأكيد استمرار العقوبات على خلية الضمّ الروسي لشبه جزيرة القرم، كذلك تجديد نائب الرئيس ووزير الدفاع الالتزام الأميركي بحلف «الناتو»، كعوامل مفرمة للتعاون، فإن هذه تمّسّ مباشرة عصب سياسات بوتين وثوابتها والتنازلات التي يتوقعها من إدارة ترامب.

غير أن الملف السوري يبقى محكماً مهماً بين روسيا وأميركا، وقد استغلّ بوتين الغياب الأميركي لإعادة هندسة معالم الأزمة، بدءاً بحسب عسكري لمعركة حلب ثم بمحاولة إنهاء الصراع المسلح واقامة تفاهم وضمان ثلاثيين (مع تركيا وإيران) لرعاية وقف شامل لإطلاق النار والتمهيد لمفاوضات على الحل السياسي. وبمواكبة ذلك أعلنت موسكو توسيع قاعدتها في طرطوس للمكوث فيها 49 سنة مقبلة وأبرمت مع حكومة نظام بشار الأسد اتفاقيات تمنحها تحكّماً لاحقاً بالاقتصاد وإعادة الإعمار، فيما كانت أنجزت خطوات متقدّمة في إعادة تنظيم الجيش الحكومي وتهيئته لاستيعاب الميليشيات التي ابنت من صفوفه أو فرّختها إيران إلى جانبه بقصد تهميشه، فضلاً عن استعادة العسكريين المنشقين أو دمج عناصر الفصائل المسلحة المعارضة. كل ذلك أعطى انطباعاً عاماً بأن روسيا امتلكت الكلمة العليا والأخيرة في الشأن السوري، سواء بوجودها على الأرض وعملها المباشر مع النظام، أو بتفاهمٍ مع تركيا مكّناً من ضبط ايقاع الفصائل وبنّ تصنيفها معتدلةً أو متطرفةً.

أوحّت الوتيرة السريعة لتحرك موسكو بأن روسيا تسعى من جهة إلى التطهير من وصمة جرائم حلب وتدميرها، أي أنها - أخيراً! - تغيّرت وتريد أن تقنن «النصر» الذي أهدته إلى حليفها نظامي دمشق وطهران في مسار «سلمي» - سياسي. وكان يمكن أن يولد ذلك دينامية لإنهاء الصراع، لو أن هذه هي الإرادة الحقيقة لموسكو، ولو أن ادارتها لهذا المسار لم تكن على هذا القدر من اللامهنية التعيسة، كما أن «التغيير» الروسي المفترض لم ينعكس على نظام الأسد وإيران. من ذلك مثلاً، أن موسكو استبّقت إعلان وقف النار بجتماع ثلاثي لوزراء الخارجية وآخر لوزراء الدفاع لتأكيد «ضمان» الدول الثلاث لتنفيذها، لكن تبيّن أن الضمان الوحيد سرى على الفصائل المعارضة وقد التزمته تركيا، فيما لا يزال ضمان روسيا للنظام، وإيران لميليشياتها، بلا أي تأثير حتى الآن. وكان يفترض أن تكسب روسيا في مؤتمر «آستانة 1» صدقية مفتقدة، إلا أن كلّ ما فعلته قبله وخلاله وبعده كان عبارة عن خطوات مبتسرة ومنقوصة، وقد تأكّد الآن أنها إما فشلت في إلزام النظام وإيران باحترام الهدنة، أو أنها لم ترد ذلك أصلاً، بدليل أنها شاركت في انتهاكات لوقف النار في مناطق لا وجود فيها للمجموعات المصنّفة إرهابية. بل استعادت أخيراً نهج التوحش عندما استخدمت قنابل النابالم في قصف حمص وإدلب.

ثم كان ذلك الأداء البائس الذي تمثل بتمرير نسخة دستور جديد لسوريا أعدّها «خبراء» روس. فعدا أن فكرة الدستور المعليّب مستهجنّة كلياً، كانت طريقة تقديمها مسخرة موصوفة. وإذا قيل إن هذه المساهمة الدستورية استهدفت تفعيل المفاوضات وتسريع الخطى نحو الحل السياسي، فإنها كشفت أمرين: الأول أن موسكو تعمل على مسار موازٍ لـ «جنيف» أو بديل منه، والآخر أنها أرادت إقحام الفصائل المسلحة في ما لم تعدّ نفسها له. وحينما حاولت موسكو، قبيل «آستانة 2»، الدفع أكثر في اتجاه «تسبيس» جدول الأعمال العسكري، جازفت بزعزعة تفاهماتها مع تركيا، ووجهت من جانب الفصائل بأنها لم تلتزم تعهداتها في شأن الهدنة. ثمة مفارقة غريبة في «آستانة 1»، فهو كان فرصة صنعتها موسكو ثم فوّتها مع سابق تعمّد وتصميم، وكان بإمكانها أن تصرّه على وفدين عسكريين للتداول في ثبيت وقف النار إلا أن طبيعة وفد النظام كشفت أن المقاصد الروسية من المؤتمر كانت سياسية وهو ما شاءت ترسّيده في «آستانة 2» لكنها أخفقت، ما أدى أيضاً إلى اجهاض جدية الآلية الثلاثية لوقف النار.

كانت موسكو تخلّت عن تصنيف جميع الفصائل بأنها «ارهابية» أرادت من جهة استئمالة الفصائل «المعتدلة» واحتواها فجاءت بـ«ممثليتها» إلى آستانة باعتبارهم «متمرّدين» مهزومين في حلب لمواجهة «وفد الحكومة» الذي واصل اعتبارهم «ارهابيين». بل أرادت من جهة أخرى فرض مسار آستانة لنفس مسار جنيف أو افراجه من أي مضمون، فالازمة في نظرها هي بين النظام ومتمرّدين مسلّحين وليس بينه وبين معارضة سياسية، أما معارضو المنصّات (موسكو والقاهرة وآستانة وحميميم...) غير المرتبطين بأي فصائل ولا بأي حراك شعبي، فيمكن استخدامهم لتسليط الضوء على تشتّت المعارضة في مقابل تماسك النظام، وبالتالي للتحكّم بوجهة أي حلّ وضمان أنه لا يعني انتقالاً بل استمراً سياسياً. وهكذا أفشلت روسيا مسار جنيف كما أفشلت مسار آستانة، مفضّلة العودة إلى الضغط العسكري لاستدعاء إدارة ترامب إلى مساومة لم تفلح في فرضها على إدارة أوباما.

جريدة الحياة

المصادر: